



تثير معركتا الفلوجة والرقة جدلاً متوقعاً ومشروعاً، حتى لو اتخذ طابعاً طائفياً مؤسفاً، فهذا هو المنطق الذي فرض نفسه في الأعوام الأخيرة، حين راحت الصراعات الأهلية تتطيف، وبالأخص حين دخلت الولايات المتحدة وروسيا كطرفين في هذه الصراعات ومنحازين صراحة أو ضمناً إلى جانب إيران في مشروعها للهيمنة بميليشياتها الطائفية على العراق ثم على سورية ولبنان. إذ لا تمكن إهانة عقول الناس في مناطق سيطرة تنظيم «داعش»، والمعاطفين مع معاناتهم، باعتبارهم مجرد حاضنين لتنظيم إرهابي لم يكن لهم دور في استيلاده وتسلیحه، أو بالقول إنهم مخّيرون في الفلوجة بين «داعش» وميليشيات «الحشد الشعبي» الشيعية التابعة لإيران ومخّيرون في الرقة بين «داعش» وميليشيا «وحدات حماية الشعب» الكردية التي تدين بوجودها للنظامين السوري والإيراني. وبالتالي لا يمكن توقع أن يفهم السوريون وال العراقيون محنتهم بأنها مجرد «إرهاب» مرفوض دولياً، أو أن يتفهموا جعلهم بدورهم مرفوضين ومكرهين وهو قتلهم ويقتلهم قبل / وأكثر مما يقتل سواهم، وكانوا رأوا بالأعين المجردة وأدركوا بالتجربة المباشرة من فتح الطرق لـ «داعش» كي يدخل إلى مدنهم وقراهem. ولذلك يصعب أن يميّزوا بين من استدعاش مناطقهم وبين من يدعى الآن أنه آتٍ لتحريرهم، ويصعب أن يستوعبوا أن قتلهم وإذلالهم بأيدي «داعش» وصانعيه ومحاربيه في آن.

قبل أيام، فيما باشرت ما تسمى «قوات سورية الديمقراطية»، تمويهاً لتسميتها الصحيحة كـ «قوات كردية»، شنَّ هجمات منظمة لانتزاع مناطق من «داعش» في ريف الرقة الشمالي، وبدأت التموضع تمهدًا لاقتحام المدينة – «عاصمة دولة الخلافة» – فإذا بالتنظيم يدفع بجموعات كبيرة من مقاتليه غرباً بهدف الوصول إلى أعزاز بعد مارع في ريف حلب

الشمالي، ثم السيطرة على معبر التواصل الأخير بين تركيا والمعارضة في حلب. كانت موسكو طلبت علناً تسكير هذه البوابة، وقبل ذلك كان نظام بشار الأسد والإيرانيون من اعتبرها «سبب» استمرار الأزمة.

لماذا أقدم «داعش» على هذه الخطوة ومن كان يخاطب؟ من الواضح أن الهجمات التي يتعرض لها شمالاً لم تقلق، وبالنسبة إلى قوى المعارضة الموجودة على الأرض لم يكن هناك أي غموض: فالتنظيم الإرهابي ونظام الأسد لا يزالان يتخادمان. فأي قتال بينهما يُكسب كلاً منها «شرعية» يريد التنكر بها، النظام في إثبات مواجهته لـ«الإرهاب»، و«داعش» في سعيه إلى تأكيد جديّة مشروع «دولته». هذه المعادلة التصادمية – التهادنية لم تقطع سبل «تنسيق» بينهما، كان بإشراف ضباط أسديين وايرانيين ثم دخل عليه الروس في شكل غير مباشر، إذ لا تزال واقعة تدمير طرية في الأذهان، حين تمكن «داعش» من الانسحاب بآلياته وأسلحته وبرعاية غطاء جوي روسي. هناك وقائع كثيرة سابقة، من بينها مثلاً سيناريyo تسليم مركز الرقة إلى «داعش»، أو تدخل مسؤولين من استخبارات النظام لحل إشكال أدى إلى مواجهات دامية بين التنظيم والميليشيا التابعة لـ«حزب الاتحاد الديمقراطي» بزعامة صالح مسلم الذي تريد موسكو تمثيله في وفد المعارضة إلى مفاوضات جنيف.

بين نظام دمشق الذي لا تعرف الولايات المتحدة بشرعنته والمعارضة التي لا تعرف بأي من فصائلها ولا حتى بـ«الجيش الحر» أو المقاتلين الذين دربوا بمعرفتها لدى دول صديقة أو بإشراف وكالة «سي آي اي» ارتأى الأميركيون أن يعتمدوا على الأكراد وعلى مجموعة محدودة العدد استُخدمت لخلع صفة «العربيّة – الكردية» على «قوات سوريا الديمقراطية». لكن الجميع يعلم أن هذه «القوات» كردية وكذلك قيادتها وأن الأميركيين يعولون عليها لـ«تحرير الرقة»، ولذلك قال غريب حسّو، أحد ممثلي «حزب الاتحاد» إن «من المنطقي أن تنضم المدينة بعد تحريرها تلقائياً إلى النظام الفيدرالي»، الذي يعمل الأكراد على إنشائه في شمال سوريا. من الواضح لكثيرين، لا سيما للعرب والروس والأتراك، أن هذه الصيغة العسكرية – السياسية التي اختارت بها أميركا لبتّ مصير الرقة تسلّحها عملياً عن خريطة سوريا وتؤسس بها لصراع عربي – كردي، فضلاً عن أنها لا توحّي بجدية فعلية للقضاء على «داعش» بل ربما تفتح أمامه فرصاً للاستمرار بصيغ مختلفة، وهي تذكر بأن الأميركيين تحدثوا دائماً عن إضعافه، أكثر مما تحدثوا عن إنهاء وجوده.

والواقع أن تحليل «الحرب على داعش»، كما قادتها أميركا حتى الآن، من دون معالجة الأزمات التي أدت إلى ظهوره سواء في سوريا أو في العراق، يبيّن أمرين: الأول أن وجود وباء الإرهاب وليس غيابه يحقق مصلحة أميركية، والثاني أن محاربة الإرهاب تمكّن واشنطن من ضبط إيقاع المنطقة وتحديد أدوار الدول فيها، بما في ذلك روسيا التي فشلت كلياً في طرح معايير مختلفة عن تلك الأميركيّة، لا في التعامل مع ملف الإرهاب ولا في حل الأزمة السورية.

ولعل الأخطر أن تلك الحرب، بمحدداتها السياسية التي وضعتها القيادة الأميركيّة لـ«التحالف الدولي»، لا تساعد الدول والحكومات المعنية في المنطقة على تجاوز الإرهاب بعد «إضعافه»، بل تبقى مجتمعاتها في مواجهة ومعاناة دائمتين مع موجاته المرشحة للتجدد مستمرة وقدها من عوامل عدّة. ذاك أن الصراعين السنّي – الشيعي والكردي – العربي يدوران في بيئه أفسدتها إيران بتهميشهما الجيوش والمؤسسات الأمنية الوطنية لمصلحة الميليشيات التي أنشأتها. ثم أن هذه الميليشيات اكتسبت «مشروعية» بفعل تعامل الأميركيين والروس معها كقوى أمر واقع، وهو ما ظهر بفجاجة في غضن النظر الأميركي عن مشاركة ميليشيات «الحشد» بقيادة قاسم سليماني في معركة الفلوجة، كما يظهر في تلاقي الأميركيين والروس والإيرانيين ونظام الأسد على دعم الميليشيا الكردية مع علمهم بخطورة أنشطتها الإنفصالية أو بالأحرى تأييدها لهذه الإنفصالية. وجميع هؤلاء يدعون محاربة «داعش» ويوظّفونه في مشاريع لتغيير الديموغرافية والجغرافية ورسم حدود ما بعد

تدفع روسيا وإيران عن نظام الأسد وتعترف أميركا لهما بهذه الأفضلية، وتدفع أميركا وإيران عن النظام العراقي وتعترف روسيا لهما بهذه الأفضلية. في الحالين يبدو السوريون موالين ومعارضين، والعراقيون شيعةً وسنةً، كمن فقدوا أي تأثير في مستقبل بلد़هم. فمن يأخذ الرقة يطلق رصاصة الرحمة على سوريا الموحدة، كذلك من يأخذ الفلوجة يتحكم بصيغة الفدرالية العراقية، و«الفضل» في الحالين لـ«داعش» ذريعة ووسيلة. لا تزال لنظام الأسد فسحة يتظاهر فيها بأنه يحكم، فيما يتصرف الروس والإيرانيون ميدانياً كأنه غير موجود. أما صورة حيدر العبادي وهو بين يدي هادي العامري فلا تعني شيئاً آخر غير أن سلطة الميليشيا تبقى أعلى من الحكومة وأي سلطة أخرى، ففي يوم غير بعيد كان العبادي يستقوى بمرجعية علي السيستاني لكن دعوات المرجع إلى عدم الاستباحة في الفلوجة بقيت بلا صدى، فالميليشيات وجدت أساساً للانتهاكات.

كل السيناريوهات التي حاولت تصوّر حلول ما في سوريا أو في العراق كانت تشير إلى لحظة فارقة غير محددة المعالم، كإعلان توافق الأميركي – روسي أو توافق الأميركي – إيراني، غير أن أيّ منها لم يتوقع أن يكون «تحرير» المدن المستدعاة هو تلك اللحظة. كان الظن أن «داعش» حال شاذة يتنافس فيها الغباء مع الخطورة ولا يمكن بناء حلول دائمة عليها، فهو لا يعبر عن المجتمع وحركة التاريخ، وليس لديه مشاريع ورؤى للمستقبل. لكن المتذمّلين الكبار وجدوه فرصة سانحة للعبث بخراطط طرأت عليها تغييرات تنتظر من يعترف بها.

الحياة اللندنية

المصادر: